الدرس السادس

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (الحجر:٧٨-٨٤) .

إرسال شعيب إلى أصحاب الأيْكَة :

ذكرت السورة قصَّة أخرى بإيجاز ، قصَّة أصحاب الأيكة : ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ ، إشارةٌ سريعة إلى قصَّة أخرى ، قصَّة أصحاب الأيكة ، والأيكة : هي الموضع الذي يكثر فيه الشَّجَر المُلْتفّ . وهؤلاء هم الذين أُرسل إليهم شُعيب عليه السلام ، شُعَيبٌ أُرسل إلى مَدْيَن ، وهي مدينةٌ على ساحل البحر تُحاذي تبوك ، وأرسل إلى أصحاب الأيكة ، ولكنه كان من مَدْيَنَ ، ولذلك جاء في القرآن : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ (الأعراف:٨٥) ، ولكنه لم يكن من أصحاب الأَيكة ، ولذلك لم يقُل : (إذ قال لهم أخوهم شعيب) . في سورة الشعراء ، بل قال : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (الشعراء:١٧٧) ، ولم يقُل لهم : (يا قوم أوفوا الكيل) . بل قال : ﴿ أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ ﴾ (الشعراء:١٨١) من غير يا قوم . فدلنا القرآن بذلك على أن من الأخوة أخوة قومية ، كأخوة شعيب لمدْين . ومن هنا أجزنا أن يكون بين المسلمين والمسحيين إذا كانوا من بلد واحد كمصر ، أو من ثقافة واحدة وحضارة واحدة ، كالمسحيين العرب : أخوة مشتركة هي الأخوة الوطنية أو القومية .

الانتقامُ من أصحاب الأيْكَة :

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ[1] ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾

ووصف الله سبحانه أصحاب الأيكة بالظلم ، وهم ظلموا أكثر من ظلم .

الظلم الأول : ظلم الشرك ، ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان:١٣) .

الظلم الثاني : ظلم الناس ، كانوا يُطفِّفون في المكيال والميزان ، وكانوا يبخسون الناس أشياءَهم ، ويعثونَ في الأرض مفسدين ، وهدَّدوا نبيهم بالرجم ، وقالوا : ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ (هود:٩١) ، وهكذا توالى ظلمهم وتنوع .

كان أصحابُ الأيكة ظالمين ، فانتقم الله منهم ، لأن الظلم عاقبته وخيمة : ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [2]، عاقبناهم على ظلمهم بأن أهلكناهم بشدَّة الحر[3]، ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ ﴾ [4] طريق ، وإنما سمِّي الطريق إمامًا ؛ لأن الإنسان يأتم به حتى يبلغ الموضع الذي يريده ﴿ مُّبِينٍ ﴾ : واضح ظاهر .

ما المراد بقوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾ ؟

هل هما أصحاب الأيكة ومَدْيَن ، الذين أُرسل إليهما شعيب؟ أم هم أصحاب الأيكة وقوم لوط ؛ لأنهم قريبون بعضهم من بعض في المكان وفي الزمان؟ ولذلك

---

(١) (إنْ) هي المخففة من الثقيلة ، وهي هنا مهملة عن العمل ، فصار معناها مشابها لمعنى (قد) . واللام الداخلة على (ظالمين) هي اللام الفارقة بين المخففة من الثقيلة وبين (إن) النافية ، وتفيد التوكيد .

(٢) الانتقام ليس هنا للتشفي من الجاني ، بل معناه : إنزال العقوبة مناسبة لما ارتكبه .

(٣) انتقم الله من أصحاب الأيكة بعذاب الظلة المبيَّنة في الآية ١٨٩ من سورة الشعراء . وأما أهل مدين فأخذتهم الصيحة كما جاء في سورة هود .

(٤) إمام على وزن فِعال ، بمعنى اسم المفعول للمبالغة من مصدر : أُمَّ يُؤَمُّ ، وعُبِّر به عن اسم الذات لتوكيد المبالغة .

قال شُعيب حينما أنذر قومه : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ (هود:٨٩). لعل القول الثاني هو الأقرب .

أصحاب الحِجْر قوم صالح :

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

قصَّة ثالثةٌ يذكرها الله تعالى بعد أن نبَّأ عباده أنه هو الغفور الرحيم ، وأنَّ عذابه هو العذاب الأليم ، وهي قصَّة أصحاب الحِجْر ، حِجْر ثمود قوم سيدنا صالح عليه السلام ، وهؤلاء من العرب ، الذين يُسمُّونهم العرب البائدة ، الذين بَادوا ودَرَسَتْ آثارهم ، ولم يَبْقَ منهم شيء : ﴿ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴾(النجم:٥١)، لم يبقَ منهم أحد ، عاد وثمود من العرب البائدة .

تكذيب أصحاب الحجر المرسلين :

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ، هم كذَّبوا صالحًا وجحدوا ما جاء به وأنكروه ، وإنما قال تعالى : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ، لأنَّ من كذَّب نبيًّا فكأنما كَذَّب الأنبياء جميعًا ؛ لأنَّ مَن يفتري على هذا يفتري على ذاك ، ولذلك قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (الشعراء:١٠٥) ، فهم كذَّبوا نوحًا وكذَّبوا بتكذيبه كلَّ رُسُل الله عزَّ وجل : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ .

مكان حِجْر ثمود :

حِجْر ثمود هذا في الطريق من خيبر إلى تبوك ، ويُعرف باسم (وادي القُرى) ، وفيها بقايا آثار (ثمود) ويُطلق عليها الآن : (مدائن صالح) ، مرَّ عليها النبيُّ ﷺ في مسيره إلى غزوة تبوك ، وحينما وَصَل إلى ديار القوم ، غَطَّى وَجْهَهُ وأسرع بدابَّته .

ففي الصحيح ، عن سالم بن عبد الله ، عن أبيه رضي الله عنهم ، أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا

مرَّ بالحجر قال : «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، إلاَّ أنْ تكونوا باكين ، أن يصيبكم ما أصابهم» ثم تَقنع بردائه وهو على الرَّحْل[1] .

هلاك أصحاب الحضارات القديمة :

كان قومُ صالح هؤلاء ، ونُسَمِّيهم الآن أصحاب حضارة ، وقد ذكر الله في سورة الفجر أصحاب حضارات قديمة : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ (الفجر:٦-١٤)،

كلُّهم أصحاب حضارات مدنيَّة ، عاد قوم هود : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ (الشعراء:١٢٨،١٢٩).

وهؤلاء ثمود ، قوم صالح : ﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾ (الحجر:٨٢) ، أو ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴾ (الشعراء:١٤٩) ، يشقُّون الصَّخر وينحتونه ، ويجعلون منه مساكن لهم ، وبيوتًا لهم آمنين ، مُقدِّرين أنَّ الأمن سيستمرُّ لهم إلى الأبد .

فبعث الله إليهم صالحًا عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده : ﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ (هود:٦٢) ، وظلَّ سيِّدنا صالح يدعوهم إلى طاعة الله ، وإلى عدم طاعة المفسدين في الأرض من الجبابرة والمُسْرفين ، قال : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝١٥٢ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٨٠) ، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٠) ، كما رواه أحمد (٥٧٠٥) ، والنسائي في الكبرى في التفسير (١١٢٧٠) .

بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ (الشعراء:١٥٠-١٥٤) ، فآتاه الله آيةً عظيمة هي الناقة ، أخرج له من الصَّخرة ناقةً بدعاء سيِّدنا صالح : ﴿ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (الشعراء:١٥٥) ، يعني تشربون يومًا ، وتشربُ النَّاقةُ في اليوم التَّالي ، وهكذا ، واليومُ المُخَصَّص لشُربِ الناقة تشربون من لبنها .

إعراض قوم صالح عن الآيات :

﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ (١)

أعظم هذه الآيات : النَّاقة ، بل هي آية تتضمَّن جملة آيات في الحقيقة ، ومع هذا تمرَّدوا على هذه الآية التي طلبوها وأمهلهم ، قال لهم : ﴿ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (الأعراف:٧٣) ، فقام أشقاهم وعَقَر الناقة ، ذبحها ، انتهى الإمهال لهم : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ (هود:٦٥) ، ثم جاءتهم الصَّيحة من السماء ، والزلزلة الشديدة من الأرض : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾ (الأعراف:٧٨) . باركين على الركب ، هالكين ميتين .

﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾ (٢)

---

(١) ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا ﴾ أي : أعطيناهم وهيأنا لهم الأدلة القاطعة على صدق صالح ووجوب التوحيد ، ﴿ فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ منصرفين بأنفسهم غير متنبِّهين ولا مكترثين .

(٢) ﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ ﴾ يَبْرون ويحفرون ، ﴿ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ معَدَّة للسكن والإقامة ، ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ مستقرين محفوظين من العدوان والشدائد ، وفي العبارة حذفٌ من السهل إدراكه ، تقديره : (ينحتون) مساكن في (الجبال) ليسكنوها (آمنين) . ولا تزال بيوتهم قائمة حتى الآن ، وهي منحوتة في داخل الصخر ، تشهد على أنهم كانوا مطمئنين إلى الدنيا غير خائفين من نوازلها ومصائبها ، كما تدلُّ على طول آمالهم فيها ، وكثرة انهماكهم بشهواتها .

وهذه البيوت المَنْحُوتة في الصَّخر لم تُغْنِ عنهم شيئًا ، حينما يجيءُ عذاب الله لا يَحُول دونه حائل ، فَتَحَصَّنَ ما شئت أن تَتَحَصّن بالصخر ، بالجبال ، فابنُ نوح حينما جاء الطُّوفان قال لأبيه : ﴿ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴾ (هود:٤٣).

هؤلاء ظنُّوا أنَّ بيوتَهُم المُحَصَّنة في الجبال تمنعهم وتَحميهم إذا جاء عذابُ الله ، ولن تغنيَ عنهم بيوتهم شيئًا ، كما ظن يهود المدينة من بعد : ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾

(الحشر:٢) .

هلاك قوم صالح بالصَّيْحة وعدم إغناء ما كانوا يكسبون من عذاب الله :

﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴾

﴿ مُصۡبِحِينَ ﴾ ، أي : نزلت بهم وأهلكتهم الصحية الصوتية المزلزلة ، وقت الصَّباح ، كما أخذت الصيحةُ قومَ لوط مشرقين ، عند شروق الشمس ، هؤلاء أخذتهم مُصْبحين .

﴿ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾

ما عملوا ، وما جمعوا ، وما بنوا ، وما حصَّنوا ، وما نَحَتوا في الجبال ، لم يُغْنِ عنهم حين جاء عذاب الله شيئًا ، هذا شأن الله دائمًا . فما أغنى عنهم ولا كفى عنهم ما كانوا يكسبون ، وما كانوا يعملون .

هناك قومٌ ذكرهم القرآن : ﴿ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا

كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ﴾ (غافر:٨٣-٨٥) ، حينما يأتي بأس الله لا يَرُدُّه رَادٌّ ، إنَّ قضاء الله نافذ ، وحُكْمُه جارٍ على كلِّ مَن قضى الله عزَّ وجلَّ بهلاكه .

قصص سورة الحجر :

هذه هي القصص الثلاث التي تضمَّنتها هذه السُّورة بعد قوله تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ ، فإذا ضَمَمْنا إليها قصَّه الإنسان الأول : قصَّة آدم وإبليس تكون السورة قد تضمَّنت أربع قصص ، وإذا فصَّلنا وقلنا : قصَّة إبراهيم ، وقصَّة لوط ، تكون قد تضمَّنت خمس قصص ، وفيها عبرةٌ للمؤمنين ، وآيةٌ للمؤمنين ، وآياتٌ للمتوسِّمين .